وضَنَّ بكَ الدهرُ عن أهلِهِ ... فثُبْتَ[١] حميداً ولم تلقَ ذاما
وأيقنتَ أنَّ الدُّنا للفنا ... ءِ فاعتضْتَ في الخُلدِ عيشاً دواما
لتَبْكِ عليكَ فنونُ العلوم ... فقد كنتَ في كلِّ فنٍّ إماما
وما كنتَ إلَّا قريعَ الزمان ... والناسُ بعدَكَ إلَّا سواما
ألا لا أرى مشكلاتِ الأمور ... يَزْدَدْنَ بعدَكَ إلا انعجاما[٢]
فمَنْ ذا يُفرِّجُ عنَّا الهمو ... مَ إذا ازدحمَتْ في الصُّدورِ ازدحاما
ومَنْ للمجالسِ صدرٌ سِواكَ ... إذا اضطربت أبحُرُ العلمِ عاما
ومَنْ للمحاريبِ أهلٌ سِواكَ ... وقدماً تقدَّمتَ فيها غلاما

وقال أيضاً[٣]:

تجاوزتَ في العلم حدَّ الشيوخ ... وكلُّ سِنيكَ ثلاثون عاما
ولم [أرَ][٤] كاليومِ بدراً سوا ... كَ عاجلَ فيه السَّرارُ[٥] التماما
فحاشا لساناً تلا ما تلو ... تَ يُصبحُ للدُّودِ يوماً طعاما
وهوَّنَ وجدي أنِّي غداً ... كما قد لقيتَ ألاقي[٦] حماما
وأن سوفَ يجمعُنا موقفٌ ... ترى الخلقَ في حافَتيهِ قياما
عليكَ السلامُ فإني امرؤٌ ... على القُربِ والبُعد أُهدي السَّلاما

السنة التاسعة والستون وأربع مئة

فيها في صفر غلب على المدينة محيط العلوي، وأعاد خطبة المصريين، وطرد منها الحسين مهنا أميرَها، فقصد خراسان إلى ملكشاه ونظام الملك، وكان قد أساء السيرة، ووضع على الواردين لزيارة قبر النبي ﷺ أتاوةً، فقامت الشَّناعة، واجتمعت القبائل مع محيط بهذا السبب.

(١) في (ب): فمُتَّ وفي المنتظم: فنِلْتَ.
(٢) في المنتظم: انقحاما.
(٣) هذه العبارة من الأصل (خ)، وكأنها مقحمة؛ لأن ما بعدها هو تتمة للقصيدة، وهي ليست في المنتظم.
(٤) مابين حاصرتين من المنتظم.
(٥) السَّرار: آخر ليلة في الشهر. المعجم الوسيط (سرر).
(٦) في المنتظم: مُلاقٍ.

وفي ربيع الأول تُوفِّي رئيس العراقين أبو أحمد بن عبد الواحد بن الخضر النهاوندي على باب ملكشاه بأصبهان.

وفيه سار ملكشاه إلى خُوزستان، ودخل البصرة، فأقام يوماً واحداً لمشاهدة المدِّ والجزر.

وفي ربيع الآخر تزوَج الأمير قراقر بن كاكويه الديلمي أرسلان خاتون عمة السلطان وزوجة [الخليفة][1] القائم، وحمل إليها مئتي ثوب أصنافاً وعشرة آلاف دينار. ودخل بها.

وفيه ورد كتاب أَتْسِز الخُوارَزمي تاريخه سلخ صفر [من أول الجفار] بأنه قد سار إلى مصر.

وفيه زادت دجلة زيادةً عظيمةً، فنُقِلَ تابوت القائم من الدار إلى الرُّصافة في الليل خوفاً عليه من الماء، ولم يعلم به أحد.

وفيه سار أُرْتُق [بك] التركماني واسمه ساراكسك، فقطع حُلوان إلى القطيف، ومرَّ على البصرة، فنهب أصحابُه ما مرُّوا به، فأُغلقت أسواقُها، وسُدَّت أبوابُ دروبها، وعَدِم الناسُ الماءَ ثلاثة أيام، وخرج إليه أعيان أهلها وقبَّحوا عليه ما فعل، فطلب منهم الجمال والروايا والزاد والمال ليذهب إلى الأحساء، فأعطوه بعض ما طلب، وسار منها في رجب إلى القطيف، فوجد يحيى بن العباس الخفاجي صاحبَها قد أخلاها ومضى إلى جزيرة أُوال، ونجم أرتق إلى الأحساء فنهبها، وكان بقلعتها جماعةٌ من القرامطة، فراسلوه وخدعوه، وقالوا: نحن نُعطيك عشرة آلاف دينار ونَخطُبُ للخليفة والسلطان. فأجابهم، فقالوا: ابعُدْ عنَّا مدةً قريبةً ليتراجع الناس، ونجمع المال. وأعطَوه رهائن، فرحل عنهم، فخرجوا إلى آبار غامضة في بساتينهم مملوءة طعاماً، فنقلوها إلى البلد، وعلم أرتق أنهم خدعوه، فعاد إليهم، وقتل من الرهائن عِدَّةً، واحتبس منهم[2] من رأى عنده رأياً، وأخرب السَّواد، ونُهبت القرى، وامتلأت أيدي مَنْ معه من النهب، وقاسوا من شدة الحرِّ ما حملهم على طلب نفورهم، وكان هناك

(١) مابين حاصرتين في هذا الموضع والموضعين الآتيين من (ب).

(٢) في (ب): عندهم.

رجل ـ يقال له: عبد الله بن علي الغنوي ـ عدواً للقرامطة، فأخذ أرتق ولده معه رهينة، ورتَّب معه مئتي فارس من التركمان، وأقام على حصار الأحساء، وكان للغنوي في تلك الأرض حصن يُعرَفُ بالمحصنة، وهو من بناء أبي البهلول المتغلب على جزيرة أُوال، والحصن قريب من الجرعاء، وقلَّتِ الغلال بها، ولا يعرف أهلها القوت إلا من التمر والسمك، ويُطعمون بهائمهم ذلك، والحنطةُ متعذِّرةٌ عندهم، فاشتدَّ الغلاء، وبلغ الرطل السمك الجرعاني مئتي درهم رصاصاً، ومعاملتهم بالرصاص، يبلغ الدينار إلى ثمانية عشر ألف درهم وإلى عشرين ألفاً بدينار، وعاد باقي التركمان إلى البلاد.

وفي رجب أغار خطلج أدران[1] على بني خفاجة، كانوا على واد السباك بالحجاز، ومعهم غَزْنة وزبيد، فخرج خطلج من الكوفة وصَحِبه جماعةٌ من التركمان طمعاً في النهب، فقال لهم: [المال لكم، والنساء لي، لا تتعرَّضوا للحريم. فقالوا][2]: نعم، وساروا في البرية ثلاثة أيام، فصبّحهم وقتَ السحر، ودقَّ الطبول، وضُربت البوقات، فركبوا خيولهم وانهزموا، وجاء هو إلى الحلل، فأسبل أثواب البيوت، وحمى مَنْ فيها من النساء وما عندهنَّ من الأموال، ونهب التركمانُ الجمال والغنم، ولم يُمكِّن أحداً من رفع سجاف عن امرأة، وكان عدد الجمال خمسة آلاف جمل، وأما الغنم فلا تُحصى، غير أنها لم تتبعهم؛ لضعفها، ورجع بطلب الكوفة، فرأى مع أصحابه من الإماء ثلاثاً، فأنكر عليهنَّ، فقالوا: هؤلاء سألْنَنا أن نأخذهنَّ لنخلصهنَّ من خدمة[3] العرب، فقلن: نعم، فقال: لا، وردُّوهن إلى العرب.

وفي رجب عاد أَتْسِز الخُوارَزمي إلى دمشق منهزماً من القاهرة في خمسة عشر فارساً، وقد نُهبت أموالُه، وقُتلت رجالُه، وكان لمَّا تسلَّم دمشق تصوَّر في عزمه قصدَ مصر، فجمع من التركمان والأكراد والعرب عشرين ألفاً، ووصل إلى الريف، وأقام نيِّفاً وخمسين يوماً يجمع الأموال، ويسبي الحريم، ويذبح الأطفال، وهو يراسل بدراً الجمالي، ويطلب المال، وقد انزعج الناس، وكان عسكرُ مصر بالصعيد [يحارب

(١) كلمة: أدران، ليست في (ب).

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) في (ب): من أيدي.

العبيد، فضمِن له مئةً وخمسين ألف دينار، واستدعى من كان بالصعيد][1] من العساكر والسودان، وكان مع أتْسِز بدر بن حازم الكلبي في ألفي فارس، فاستماله بدر، فانتقل إلى القاهرة، وورد القاهرةَ ثلاثةُ آلاف رجل في المراكب بنيَّة الحج، فقال لهم بدر: دَفْعُ هذا العدو أفضلُ من الحج. وأعطاهم المالَ والسلاح، وقالوا لوالد شكلي التركماني الهارب من أتْسِز: كاتِبِ التركمان. فكاتبهم، وأفسد منهم نحواً من سبع مئة غلام، وكانوا كارهين لأتْسِزْ من شُحِّه وعسفه، واتفقوا أن الحرب متى قامت استأمنوا إلى بدر، وسار أتْسِز إلى القاهرة في أواخر جمادى الآخرة، فأرسل بدرٌ ألفي فارس يصدمونه حتى يستأمن مَنْ أفسدهم أبو شكلي، فلم يستأمن أحداً، وكسرهم أتْسِز، فرجعوا مفلولين إلى القاهرة، وكان قد التجأ إليها أهل الضياع والأصقاع ومصر والتجار، فوقفوا على باب القصر باكين صارخين، فخرج من [عند][2] المستنصر خادمٌ فقال: يقول لكم أمير المؤمنين: إنما أنا واحدٌ منكم، وعِوَضُ ما تتضرعون على بابي وتبكون، فارجعوا إلى الله تعالى وتضرَّعوا له، ولازموا المساجد والجوامع، وصوموا، وصلُّوا، وأزيلوا الخمور والمنكرات، فلعلَّ الله أن يرحمني وإيَّاكم، ويكشفَ عنَّا ما قد نزل بنا. فعاد الناس إلى المساجد [من الجوامع، وخرج النساء كاشفات الوجوه، منثورات الشعور][3] يبكينَ ويستغِثْنَ، والرجال يقرؤون القرآن، وكان بدر الجمالي قد هيَّأ المراكب والسُّفن؛ إن رأى غلبةً نزل منها الإسكندرية، وكذا صاحب مصر، فضجَّ الناسُ، وقصدوا باب القصر، وقالوا: تمضي أنت وبدر في السفن ونهلِكُ نحن؟! فخرج الجواب: إني معكم مقيمٌ، فإن مضى أمير الجيوش إلى حيث يطلب السلامة فهاهنا من السفن مايعمُّكم، مع أنني واثقٌ من الله بالنصر، وعندنا في الكتب السالفة أنَّ هذه الأرض لا تؤتى من الشرق، ومن قصدها هلك، فلمَّا كان وقت السحر خرج بدرٌ إلى ظاهر القاهرة والعسكر معه، وأقبل أتْسِز في جحافله، والدبادب والبوقات بين يديه، فرأى بدرٌ ما لم يظنَّ له به طاقة، وكان بدر قد أقامَ بدرَ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) مابين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

ابن خازم من وراء أتْسِز كميناً في ألفي فارس، فخرج من ورائهم، فأخذ البغال المحمَّلة، وضرب النار في الخيم والخركاوات، واستأمن إلى والد شكلي السبع مئة غلام كانوا في الميسرة، وحمل بدرٌ على الميمنة فهزمها، وحمل السودان على القلب وفيه أتْسِز، فانهزم وقُتِلَ مَنْ كان حوله، وتبعهم السودان والعرب أسراً وقتلاً إلى الرمل، وغنموا منهم غنائم لم يغنمها أحدٌ قبل ذلك، وكان فيما أخذ ثلاثةَ آلاف حصان وعشرة آلاف صبي وجاريةً، وأما من الأموال والثياب فما لا يُحصى، وأقاموا مدة شهر رجب يحوزون الأموال والخيل والأمتعة والأسارى، وجاء العسكر وأهل البلد إلى باب القصر، فضجُّوا بالأدعية، فخرج إليهم جواب المستنصر: قد علمتُم ما أشرفَ عليكم من الأمر العظيم والخطب الجسيم الذي لم يخطر في نفوسنا القدرة على دفعِه وردِّه، حتى كشفه الله تعالى، وما يجب أن يكون في مقابلته إلا الشكر لله تعالى على نعمته، ومتى وُجد إنسانٌ على فاحشة كان دمُه ومالُه في مقابلة ذلك، ثم وُجِدَ بعد ذلك ستةُ سكارى، فأُخذوا وخُنقوا، وزال[1] ما كان بمصر من الفساد، ولازموا الصلوات وقراءة القرآن، ومضى أتْسِز في نفر يسير، فلمَّا وصل غَزَّة ثار أهلُها به، وقتلوا جماعةً ممَّن كان معه، فهرب إلى [الرملة، فخرج إليه أهلها، فقاتلوه وقتلوا من كان معه، فهرب إلى][2] دمشق في بضع عشرة نفساً، فخرج إليه ولدُه ومسمار أحد أمراء الكلبيين، وكان قد استخلفهما بدمشق في مئتي فارس من العرب، وكان وصوله في عاشر رجب، فنزل بظاهرها في مضاربَ ضربها له مسمار، وخرج إليه أهل البلد فخدموه، وهنَّوه بالسلامة، وشَكَوه، فشكرهم، وأطلق لهم خراج تلك السنة، وأحسن إليهم، ووعدهم بالجميل، فقام واحدٌ منهم فقال: أيها الملك العادل ـ وبه كان يُخاطب ويُخطَبُ له ـ قد حلفتَ لنا وما حلَفْنا لك، وتوثَّقتَ منَّا، وأنا والله أصدُقُكَ وأنصحُكَ. فقال: قُلْ. قال: قد عرفتَ أنه لم يبقَ في هذه البلدة عشرُ العُشرِ من الجوع والفاقة والفقر والضعف، ولم يبقَ لنا قوةٌ، ومتى غُلقت أبواب هذا البلد من عدوٍّ قصدَه، ورُمْتَ منا منَعةً أو حفظاً، فإن كنت مقيماً بيننا فنحن بين يديك مجتهدون، ولك

(١) في (خ): وذلك، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

ناصحون، وإن بَعُدْتَ عنا فلا طاقة لنا بالقتال مع الفقراء والضعفاء، فلا تجعل غلبة العدو سبباً لهلاكنا ومؤاخذتنا. فقال: صدقتَ ونصحتَ، وما أبعدُ عنكم، ولا أُخليكم من عسكر يكون عندكم. ثم أقام بدمشق، جاءه التركمان من الروم، ولم يستخدم غيرهم، وعصى عليه الشام، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام، وقام بذلك المَصامِدة والسودان، وكان أتْسِز وأصحابُه قد تركوا أموالهم [بالقدس، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم] ونسائهم فنهبوها، وقسموا التركيات بينهم، واستعبدوا الأحرار من الأولاد واستَرَقُّوهم، فخرج من دمشق فيمن ضوى إليه من التركمان، ووصل إلى قريب القدس، وراسلهم وبذل لهم الأمان، فأجابوه بالقبيح، وتوعَّدوه بالقتال، فجاء بنفسه إلى تحت السور، فخاطبهم وسبُّوه، فقاتلهم يوماً وليلةً، وكان مالُه وحرمُه في برج داود، ورام السودانُ والمَصامِدةُ الوصول إليهم فلم يقدروا، وكان في البرج نفق[1] إلى ظاهر البلد، فخرج أهلُه منه إليه، ودلُّوه عليه، فدخل منه ومعه جماعةٌ من العسكر، وخرجوا من المحراب، وفتحوا الباب، ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة آلاف إنسان، واحتمى قومٌ بالصخرة والجامع، فقرَّر عليهم الأموال، حيث لم يقتلهم لأجل المكان، وأخذ من الأموال شيئاً لا يبلغه الحصر، بحيث بِيعَتِ الفضة بدمشق كلُّ خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار، وقُتِلَ القاضي والشهودُ صبراً بين يديه، وقرَّر أمور البلد، وسار إلى الرملة، فلم يرَ فيها من أهلها أحداً إلى غزة، وقتل كلَّ منْ فيها، فلم يدَعْ بها عيناً تطرف، وجاء إلى العريش فأقام فيه، وبعث سريةً فنهبت الريفَ وعادت، ثم مضى إلى يافا فحصرها، وكان بها رزين[2] الدولة، فهرب هو ومن كان فيها إلى صور، فهدم أتْسِز صورها[3]، وجاء كتابه إلى بغداد بأنه على نية العَوْد[4] إلى مصر، وأنه يجمع العساكر، ثم عاد إلى دمشق، ولم يبقَ بها من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمس مئة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء، وكان بها مئتان وأربعون خبازاً، فصار بها خبَّازان، والأسواق خالية، والدار

(١) في (ب): رتق.

(٢) تحرفت في (خ) إلى: وزير، والمثبت من (ب).

(٣) هكذا في (خ) و(ب)، ولعلها: سورها.

(٤) في (خ): العهود، والمثبت من (ب).

التي كانت تساوي [ثلاثة آلاف دينار يُنادى عليها عشرة دنانير، فلا يشتريها أحد، والدكّان الذي كان يساوي][1] ألف دينار ما تُشترى بدينار، كان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيُضرمون فيها النار فتحترق، ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به، وأُكِلت الكلابُ والسنانير، وكان الناس يقفون في الأزِقَّة الضيِّقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم، وكان لامرأة داران قد أُعطيت قديماً في كلِّ دار ثلاثُ مئة دينار أو أربع مئة دينار، ولمَّا ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر، فاحتاجت إلى سِنَّور، فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطاً، واشترت بها سِنَّوراً.

وفي شوال وقعت فتنة بين الشافعية[2] والحنابلة، وسببها أنه ورد إنسان يُعرف بأبي نصر بن عبد الكريم القُشيري النيسابوري الواعظ المتكلم على مذهب الأشعري، فجلس في المدرسة النظامية، وخلطَ وعْظَه بالكلام، وذمَّ الحنابلة، وتكلَّم في القرآن، فأنكرت الحنابلة ذلك، وعَنَّ لأبي إسحاق الشيرازي إمام الشافعية وأصحابه معونته على الحنابلة، وتتبَّعَ بعضُهم بعضاً في الطرقات ضرباً وسبًّا، فالشافعية لقلة عددهم اعتضدوا بنظام الملك، وأما الحنابلة فمع كثرة عددهم تقوَّوا بسواد البلد، وكان في يوم مجلس ابن القُشيري يحضر قومٌ من اليهود والنصارى، ويرغبون فيما يعطون فيُسلمون، ويُخلَع عليهم، ويُحملون على الخيل ويُطاف بهم، فتقول العوام: هذا إسلام المغايظة والرِّشا، لا إسلامُ الدين والتُّقى. وزاد الأمر فيما بينهم، وجلس جماعةٌ، وكتب أبو إسحاق إلى نظام الملك يشكو أمر الحنابلة ويستدعي منه المعونة، وبعث جماعةً بكتُب، وكان أبو جعفر عبد الخالق بن أبي موسى الهاشمي مُتقدِّم الحنابلة مقيماً بالرُّصافة، فبان له من شحنة بغداد، ويُعرف بالسلار القاروني، تعصُّب عليه خدمة لنظام الملك، وبلغه أنَّ ابن القُشيري على عزمٍ قصد جامع الرُّصافة يوم الجمعة ومعه الشحنة، فخاف، وجاء إلى دار الخليفة شاكياً، وأقام بباب المراتب أياماً، ثم مضى إلى مسجده بباب النُّوبي، فأقام به على عادته، وحُمِلَ إليه يهوديٌّ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) في المنتظم ١٦/ ١٨١-١٨٣ ـ والخبر فيه ـ بنحوه مختصراً ـ : الأشعرية.

فأسلم، وخرجوا معه، وقصدوا باب النُّوبي، وعزموا على الهجوم على ابن أبي موسى [في][1] مسجده، ورتب ابنُ أبي موسى أصحابَه على سطحِ المسجد وبابِه وجوانبِه، فلمَّا وصلوا رماهم الحنابلة بالآجر من سطح المسجد، فقُتِلَ واحدٌ من الشافعية خياطٌ من سوق الثلاثاء، وخرج آخرون، ووقع في صاحب الباب آجُرَّة، وانهزم الشافعية، وغلقوا أبواب النظامية، ونُهبت عمائمُ الناس، وصاحت الشافعية على باب النُّوبي: المستنصر يا منصور؛ تهمةً للمقتدي أنه يميل إلى الحنابلة، وأُدخِلَ ابنُ أبي موسى إلى دار الخليفة، وأُسكِنَ في موضع؛ حراسةً له، وحجراً عليه، وكفًّا للفتنة، وغضب أبو إسحاق الشيرازي وجمعَ أصحابَه، وعزمَ على الخروج من البلد، فبعث الخليفةُ مَنْ ردَّه، وأحضر ابنَ القشيري وأبا سعد الصوفي وأبا إسحاق وابنَ أبي موسى إلى الديوان، وأُصلحت الحالُ، ووقع التراضي بأنَّ ابن القشيري يجلس بجامع القصر مجلسين أو ثلاثاً، فلمَّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة جلس بالجامع، وبعث الخليفةُ جماعةً من الرجالة بالسلاح يحفظونه من العوام، فشرع في الوعظ، وخلَّط بكلام الأشعري، فقام رجل أعمى وقف بإزائه وانتزع آياتٍ من القرآن، مثل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم: ٤٢] ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وما أشبه ذلك، فشكى ابنُ القشيري إلى ابن جَهير، فحبس الأعمى، والفتن قائمة، ووردت رُسُلُ أبي إسحاق الشيرازي في المُحرَّم سنة سبعين ومعهم كتابان إلى فخر الدولة ابن جَهير وابنِه عميد الدولة أبي منصور، فمضمون كتاب فخر الدولة: كتابي أطالَ اللهُ بقاء سيِّدِنا الوزير الأجلِّ السيد مؤيد الدين فخر الدولة شرف الوزراء، أدامَ الله رفعتَه وتمكينَه وبسطتَه، وذكر ما جرت به العادة من الدعاء، وقال: بلغنا ما تجدَّد ببغداد من القضايا المتعلِّقة بالدين التي تظهر في أثنائها على الصُّدفَة، واعتقادُ المداهنين يُشعر بأن الضمائر المنطوية على النفاق أبَتْ إلا ما تُكِنُّه، والسرائر المعقودة على الخِلاف والغلِّ لم تصبر على استحفاظ ما تُجِنُّه، حتى ورد إثرَ ذلك عدةٌ من الفقهاء ونفرٌ من العلماء، فأوضحوا ما يجري هناك مما كانت تخفى حقيقتُه وجَليَّتُه، وما ظهرت بذلك صورتُه، ولعمري إن هذه الطائفة ـ يعني

(١) مابين حاصرتين من (ب) والمنتظم.

الشافعية ـ إذا قَلَّتْ غواتهم ولم يجدوا فيما دَهَمَهم مَنْ ينصرهم ويُظافرهم، ولم يقُمْ معهم فيما حزَبَهم ويؤازرهم، وإن كانوا لم يزالوا مُقدَّمين مميَّزين مُكرَمين فلم يُصبحوا أغراضاً لِسهام النوائب يطعن فيهم كلُّ مخالفٍ ومُجانبٍ، لا يرعى لهم حُرمة، ولا يرقُبُ فيهم إلًّا ولا ذِمَّة، غير اعتقاد المذهب الذي هم به موسومون، ومن علومه يتعلمون، وقد بنينا لهم مدرسةً تصير مأواهم، ويتَّخذونها في السراء والضراء مثواهم، وإن هؤلاء الذين ينتحلون مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله ـ وإن كان هو بريئاً من سوء دَخَلِهم وأفعالهم، منتفياً من ذميم طرائقهم وأقوالهم، مع كثرةِ عددهم في تلك البقعة واشتداد شوكتهم، واتفاقِ أقاويلهم في الضلال وكلمتِهم ـ لم يتجاسروا في زمن الأزمة على ما جعلوه الآن بينهم سورةً يتدارسونها، وصَنْعَةً يمارسونها، مِنْ سبِّ الأئمةِ، والوقيعةِ في علماء الأمَّةِ، من غير منعٍ ولا معاقبة، ولا تخوُّفٍ ولا مراقبة، والعجبُ من إقدامهم في تلك البقعة الحرجة على أهل السنة، وإلقائهم إياهم في كلِّ محنة، وعندنا بخراسان وبلاد الترك ـ مع تباعُدِ أقطارها واتِّساع أكوارها ـ لا يُعرف فيها سوى مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، ومَنْ سُمِعَتْ منه كلمةٌ عوراء في سائر كُوَرِها تُخالف المذهبين وتُباينُ اجتماعَ الفريقين نرى دمَه حلالاً، ونُوسِعُهُ ضرباً وإذلالاً، وليس الإغضاءُ عمَّا يبدو منهم من البدع، ويُضاف إليهم من شرٍّ مجتمع، إلَّا ترفُّقاً أن يجري في جوار الخِلافة المُعَظّمةِ وسُدَّةِ[1] الإمامة المكرمة ما يُخِلُّ بلوازم الهيبة، ويفلُّ جوانب التعظيم والرَّهْبَة[2]، وأما ما يخصُّني أنا في ذلك البلد فما أجدُ أَصْلَحَ من حسم القول فيما يتعلق بتلك المدرسة؛ لئلَّا يجري على من يتفيَّأ ظلَّ عنايتي، ويلحَظُ بعين رعايتي ما يجري، وذكر كلاماً طويلاً ممزوجاً بتهديد، وكذا كتاب عميد الدولة.

وحكى أبو الفتح الحلواني ـ وكان قد حضر هذه القضية ـ أنَّ الخليفة لمَّا خاف من تشنيع الشافعية عليه عند نظام الملك أمر الوزير أن يُجيل الفكر فيما يحسم به الفتنة، فاستدعى ابنَ جردة، وأمره بإحضار الشريف أبي جعفر وأبي إسحاق الشيرازي وابن القُشيري وأبي سعد الصوفي على وجه التلطُّف، فأحضرهم، فعظَّم الوزيرُ أبا جعفر ابنَ أبي موسى ورفَعَه،

(١) في (خ): الخليفة العظمة وشدة.

(٢) في (خ): الوفية.

وقال: إن أمير المؤمنين قد ساءه ما جرى، وهؤلاء يصالحونك على ما تريد، وأمرهم بالدنوِّ من الشريف، فقام أبو إسحاق الشيرازي إليه ـ وكان يتردَّد إلى مسجده أيام المناظرة بدرب البطيخ ـ فقال له: أنا الذي تعرف، وهذه كتبي في أصول الفقه أقول فيها خلافاً للأشعرية. ثم قبَّل رأسه، فقال له الشريف: قد كان ما تقول، إلَّا أنك لمَّا كنتَ فقيراً لم يظهر لنا منك ما في نفسك، فلما جاء الأعوانُ والسلطانُ وخواجا بزرك أبديتَ ما كان مخفيًا. ثم قام أبو سعد الصوفي وقبَّل يدَ الشريف وتلطَّف به، فالتفت الشريف إليه وقال: أيها الشيخ، أمَّا الفقهاء فإذا تكلَّموا في الأصول فلهم في مسائلها مدخل، أمَّا أنت فصاحب لهو وسماع وتغبير، فمن زاحمك على ذلك حتى أقمتَ الفتن وسوقَ التعصُّب؟!. وقام ابن القشيري ـ وكان أقلَّهم احتراماً للشريف لجروانه معه ـ فقال الشريف: من هذا؟ فقيل: أبو نصر بن القشيري. فقال: لو جاز أن يُشكرَ أحدٌ على بدعته لكان هذا الشاب؛ لأنه بادَهَنا بما في نفسه، لم ينافقنا كما فعل هذان. ثم التفت إلى الوزير، وقال: أيُّ صلحٍ بيننا؟ إنما يكون الصلح بين خصمين على ولايةٍ أو دَين أو قسمةٍ لميراث، أو تنازعٍ في ملك، فأمَّا هؤلاء القوم فيزعمون أننا كفار، ونحن نعتقد أنَّ من لا [يَعتقِدُ ما][1] نَعتَقِدُهُ فهو كافر، وهذا الإمام مفزَعٌ للمسلمين، وقد كان جدُّه القادر وأبوه القائم أخرجا اعتقاداً للناس، وقُرئ عليهم في دواوينهم، وحمله عنهما الخراسانيون والحجيج إلى أطراف خراسان، ونحن على اعتقادهما. وأنهى الوزير إلى الخليفة ما جرى، فخرج الجواب: عُرِفَ ما أنهيتَه من حضورِ ابن العم ـ كثَّرَ اللهُ في الأولياء مثلَه ـ وحضورِ مَنْ حضر من أهل العلم ـ والحمد لله ـ على جمع الكلمة، وضمِّ الأُلفة، فليؤذَنْ للجماعة في الانصراف، وليقُلِ الشريفُ أنه قد أُذِنَ له موضعٌ قريبٌ من الخدمة ليراجع في كثير من الأمور الدينية، وليتبرَّك بمكانه، فلمَّا سمع الشريف هذا قال: أفعلمتوها؟. فحُمِلَ إلى موضع أُفرِدَ له، فكان الناس[2] يدخلون عليه مدةً، فقيل له: قد كثُرَ استطراق الناس لدار الخلافة، فاقتصِرْ على من يُعين دخوله. فقال: مالي غرضٌ في دخول أحد عليَّ. فامتنع الناسُ عنه، ثم مرض مرضاً أثَّر في رجليه فانتفختا، فيقال: إن بعض المتفقِّهة من الأعداء ترك له في مداسه سماً، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين من ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٥ .

(٢) من هنا يبدأ السقط من الأصل (ب) وينتهي بنهاية السنة (٤٧٣)هـ .

وخرج ابنُ القشيري إلى الحج، وسكنت الفتنة، وكتب ابنُ أبي الصقر إلى نظام الملك يقول: [من مجزوء الرمل]

يا نظامَ المُلْكِ قد حُلَّ ببغدادَ النِّظامُ
عَظُمَ الخطبُ ولِلْـ ـحربِ[1] اتصالٌ ودوامُ
وابنُكَ القاطِنُ فيها مستهانٌ مُسْتضامُ
وبها أَودى له قَتْـ ـلاً غلامٌ وغلامُ
والذي منهم تبقى سالماً فيه سهامُ
يا قِوامَ الدِّين لم يَبْـ ـقَ ببغداد مقامُ[2]
فمتى لم تحسمِ الدا ءَ بكفَّيكَ الحسامُ
ويكفُّ القومَ في بغْـ ـدادَ فتْكٌ وانتقامُ
فعلى مدرسةٍ فيـ ـها ومن فيها السَّلامُ

ولمَّا وقف نظام الملك على الرُّقعة حنق على ابن جَهير، وقد كان النظام يعلم ميل الخليفة إلى الحنابلة وبُغضَه للأشاعرة، ولكنَّه كان يستأثر الأمور، لا يمكنه أن يصرِّح بذلك، وكان في الباطن يُحرِّض ملك شاه على الخليفة الوزير.

وفيها أزال الخليفة المواخير، ونفى المفسدات وكانت مغلة الشحنة، فأعطاه من عنده ألف دينار.

وفي ذي القعدة خرج أبو طالب بن أبي تمام الزينبي إلى مكة لأخذ البيعة للخليفة والسلطان، وخرج معه خطلج أدراز أمير الكوفة، وكان ذلك مخالسةً، وما علم به من أصحابه إلا رجلان أو ثلاثة، فتبعوه، وحجَّ وعاد مع الزينبي، وخلعا على أمير مكة.

وفي ذي القعدة بعث سابق بن محمود بن الزَّوقلية صاحبُ حلب إلى أنطاكية بأحمد شاه والتركمان الذين معه وعدد كثير من بني كلاب وأحداث حلب، فحصروها، فبلغ الخبزُ بها رطلين بدينار، وقرَّروا عليه مئةً وخمسين ألف دينار، وقبضوها وعادوا عنها.

---

(١) في الأصل (خ): عظم الحرب والخطب، والتصويب من الكامل ١٠/ ١٠٩، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٣١١، وغيرهما.
(٢) في الأصل(خ): قوامُ، والمثبت من المصادر السابقة.

وفيها تُوفِّي

اسبَهْدُوست بن محمد بن الحسن[1]

أبو منصور، الديلمي، الشاعر، كان يهجو الصحابة ﷺ والناسَ، ثم تاب وحسُنت توبتُه، فقال: [من الكامل]

لاحَ الهُدى فجلا عن الأبصارِ ... كاللَّيلِ يجلوهُ ضياءُ نهارِ
ورأَتْ سبيلَ الرُّشدِ عيني بعدما ... غطَّى عليها الجهلُ بالأستارِ
لابدَّ فاعلَمْ للفتى من توبةٍ ... قبل الرحيلِ إلى ديارِ بوارِ
يمحو بها ما قَدْ مضى من ذنبهِ ... وينالُ عفوَ إلهِهِ الغفَّارِ
وعلمتُ أنهمُ هُداةٌ قادةٌ ... وأئمةٌ مثلُ النجوم دراري
وعدلتُ عما كنتُ معتقداً له ... في الصَّحبِ صحبِ نبيِّكَ المختارِ
السيِّدِ الصدِّيقِ والعدلِ الرِّضا ... عمرٍ وعثمانٍ شهيدِ الدارِ
وعليِّ الطُّهرِ المُفضَّلِ بعدَهُمْ ... سيفِ الإلهِ وقاتلِ الفُجَّارِ
صحْبُ النبيِّ الغُرُّ بل خلفاؤه ... فينا بأمرِ الواحدِ القهَّارِ
رحماءُ بينهُمُ فتلكَ صفاتُهمْ ... ورَدَتْ أشِدَّاءٌ على الكفَّارِ
وتَراهُمُ من راكعينَ وسُجَّدٍ ... يستغفرونَ اللهَ بالأسحارِ
أيقنتُ حقًّا أنَّ من والاهمُ ... سيفوزُ بالحسنى بدارِ قَرارِ
فعَدلْتُ نحوَهمُ مقرًّا بالولا ... ومخالفاً للعُصبةِ الأشرارِ
مترجِّياً عفوَ الإله ومحوَهُ ... ما قدَّمتهُ يدي من الأوزارِ
وإذا سألتَ عن اعتقادي قلتُ ما ... كانَتْ عليهِ مذاهبُ الأبرارِ
وأقولُ خيرُ الناسِ بعدَ محمدٍ ... صِدِّيقُهُ وأنيسُهُ في الغارِ
ثمَّ الثلاثة بعده خيرُ الورى ... أكرِمْ بهمْ من سادةٍ أطهارِ
هذا اعتقادي والذي أرجو بهِ ... فوزي وعتقي من عذابِ النارِ

وكانت وفاته في ربيع، ودُفن بباب أبرز.

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٨٤-١٨٥.

حمزة [ابن علي] (١)

أبو يعلى بن العين زربي، الشاعر، كان فصيحاً فاضلاً أديباً، لما فتح أَتْسِز بن أوق القدس وقتل بها ذاك العالم العظيم كان حمزة بالقدس، فقُتِلَ بالحرم في شوال رحمه الله، ومن شعره: [من السريع]

يا راكباً يقطعُ عرضَ الفلا ... بَلِّغْ أحبَّائي الذي تسمعُ
وقُلْ لهم ما جَفَّ لي مَدْمَعٌ ... ولا هنا لي بعدَكُمْ مضجَعُ
ولا لَقيتُ الطَّيفَ مُذْ غبتُمُ ... وإنَّما يلقاهُ مَنْ يهجَعُ

وقال: [من الطويل]

تناسيتُمُ عهدَ الهوى بعدَ تذكارِ ... فأجرى حديثي عِندكُم دمعيَ الجاري
وأنكرتمُ بعدَ اعترافِ مودَّتي ... فهيَّجتُمُ وجدي وأضرمتُمُ ناري
وهَلْ دامَ في الأيَّامِ وَصْلٌ لهاجِرٍ ... ووُدٌّ لِخَوَّانٍ وعهدٌ لِغَدَّارِ
أَما حاكمٌ لي في هواكُمْ يُقيْلني ... أَمَا آخذٌ لي بعدَ سفكِ دمي ثاري
وإنِّي لصبَّارٌ على ما ينوبني ... ولكن على هجرانكُمْ غيرُ صَبَّارِ

طاهر بن أحمد بن بابَشاذ(٢)

أبو الحسن، النَّحْوي، المصري، صاحب المقدمة المشهورة، كان عالماً فاضلاً، وله تصانيف في النحو، وسمع الحديث ورواه، وقُرئ عليه الأدب بجامع مصر سنين، صعد يوماً إلى سطح جامع مصر فوقع فمات من ساعته في رجب.

السنة السبعون وأربع مئة

فيها في ثالث المُحرَّم قتل السلطانُ جلالُ الدولة ملك شاه أنموه بن أتابك صاحب الجيش، وكان قد عصى عليه.

---

(١) تاريخ دمشق ١٥/ ٢١٢-٢١٣ ، ومعجم الأدباء ١١/ ٥-٨ ، ومابين حاصرتين من المصادر.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١٧-١٩. وتنظر باقي مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤٣٩ .